« وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس » ولماذا يمشى به فى الناس فقط ، وليس بين كل الأشياء ؟ ؛ لأن الأشياء الأخرى من الممكن أن تحتاط أنت منها ، ولكن كلمة الناس تعبر عن التفاعل الصعب لأنهم أصحاب أغيار . ويتابع الحق : « كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها » وهذا تساؤل جوابه : لا ، أى ليس كل منهما مساويا للآخر ، مثلما نقول : هل يستوى الأعمى والبصير ؟ . والفطرة هنا تقول : لا ، مثلما تؤكد الفطرة عدم استواء الظلمات والنور ، أو الظل والحرور ، وهنا يأمننا الله على الجواب ؛ لأنه سبحانه ـ يعلم أن الأمر إذا طرح كسؤال وكاستفهام فلن نجد إلا جواباً واحداً هو ما يريد الحق أن يقوله خبراً .

ويذيل الحق الآية :

﴿ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾

(من الآية ١٢٢ سورة الأنعام)

والمعنى هنا أى تركناهم عرضة لأن ينفعلوا للتزيين ، ولم يحمهم الحق بالعصمة فى اختيارهم ؛ لأنه سبحانه قد ترك الاختيار حرًّا للإنسان :

﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الكهف)

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾

وقول الحق سبحانه : « وكذلك » تدل على أن شيئاً شبِّه بشىء ، فكما وُجد فى مكة من يناصبك العداء ويناهضك ويقاومك فى أمر الدعوة إلى الله ، ويصدّ عن

سبيل الحق ؛ إن تلك قضية لست فيها بدعاً من الرسل ؛ لأن هذه المسألة قضية سائدة مع كل رسول فى موكب الإيمان، و«كذلك» أى كما جعلنا فى مكة مجرمين يمكرون جعلنا فى كل قرية سبقت مع رسول سبق هذه المسألة، فلم تكن بدعاً من الرسل. وحيث إنك لم تكن بدعاً من الرسل فلتصبر على ذلك كما صبر أولو العزم من الرسل. وأنت أولى منهم بالصبر؛ لأن مشقاتك على قدر مهمتك الرسالية فى الكون كله، فكل رسول إنما جاء لأمة محدودة ليعالج داءً محدوداً فى زمان محدود. وأنت قد جئت للأمر العام زماناً ومكاناً إلى أن تقوم الساعة، فلابد أن تتناسب المشقات التى تواجهك مع عموم رسالتك التى خصك الله بها.

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا .. (١٢٣) ﴾ [سورة الأنعام]

والإجرام هو مأخوذ من مادة «الجيم» و«الراء» و«الميم»، الجرْم والجُرْم والجريمة. فيها معنى القطع. و«مجرميها» جمع مجرم، ومجرم من أجرم، وأجرم أى ارتكب الجرُم والجريمة، ومعنى ذلك أنه قطع نفسه بالجريمة عن مجتمعه الذى يعايشه، فهو يعزل نفسه لا لمصلحة لأحد إلا لمصلحته هو، فكأنه قام بعملية انعزال اجتماعى، وجعل كل شىء لنفسه، ولم يجعل نفسه لأحد؛ لأنه يريد أن يحقق مرادات نفسه غير مهتم بالنتائج التى تترتب على ذلك.

إذن فالإجرام هو الإقدام على القبائح اقداماً يجعل الإنسان عازلاً نفسه عن خير مجتمعه؛ لأنه يريد كل شىء لنفسه. ومادام يريد كل شىء لنفسه فعامل التسلط موجود فيه، ويرتكب الرذائل. ولأنه يرتكب الرذائل فهو يريد من كل المجتمع أن تنتشر فيه مثل هذه الرذائل؛ كى لا يشعر أن هناك واحداً أحسن منه.

﴿ .. لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (١٢٣) ﴾ [سورة الأنعام]

والمكر - كما نعرف - مأخوذ من التفاف الأغصان بعضها على بعض التفافاً بحيث لا تستطيع إذا أمسكت ورقة من أعلى أن تقول هذه الورقة من هذا الفرع؛ لأن الأغصان والفروع ملفوفة ومتشابكة ومجدولة بعضها مع بعض. والماكر يصنع ذلك

لأنه يريد أن يلف تبييته حتى لا يُكشف عنه، ومادام يفعل ذلك فاعلم من أول الأمر أنه ضعيف التكوين؛ لأنه لو لم يعلم ضعف تكوينه لما مكر لأن القوى لا يمكر أبداً، بل يواجه، ولذلك يقول الشاعر :

وضعيفة فإذا أصابت فرصة قتلت كذلك قدرة الضعفاء

والضعيف عندما يملك فهو يحدث لنفسه بأن هذه فرصة لن تتكرر، فيجهز على خصمه خوفاً من الا تأتى له فرصة أخرى، لكن القوى حين يأتى لخصمه فيمسكه ثم قد يحدث نفسه بأن يتركه، وعندما يرتكب هذا الخصم حماقة جديدة فيعاقبه. إذن فلا يمكر الا الضعيف. والحق سبحانه وتعالى فى هذه المسألة يتكلم عن المجرمين من أكابر الناس، أى الذين يتحكمون فى مصائر الناس، ويفسدون فيها ولا يقدر أحد أن يقف فى مواجهتهم. وهناك كثير من الآيات تتعلق بهذه المسألة، وبعضها وقع فيه الجدل والخلاف، ومن العجيب أن الخلاف لم يُصفَّ، وكل جماعة من العلماء يتمسكون برأيهم. وهذه الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها تلتقى مع القول الحق :

﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا (١٦) ﴾

[سورة الإسراء]

وهذه الآية فيها اشكال، وقامت بسببها معركة بين العلماء؛ فنجد منهم من يقول: وكيف يأمر الله أناساً بالفسق؟. وحاولوا أن يجدوا تأويلا لذلك فقالوا: إن الحق قد قسر وأجبر أكابر هؤلاء الناس على الفسق. والجانب الثانى من العلماء قالوا : لا، إن الحق لا يقسر البشر على الفسق، بل على الإنسان حين يقرأ كلمة أمر الله فى المنهج فلابد أن يعرف أن هذا الأمر عرضة لأن يطاع وعرضة لأن يعصى؛ لأن المأمور- وهو المكلف - صالح أن يفعل، وصالح الا يفعل، وأن الأمر قد أمر بشىء، والمأمور له حق الاختيار؛ وبذلك تجد أكابر القوم إنما استقبلوا أمر الله بالعصيان؛ لأن الحق هو القائل :

﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ .. (٥) ﴾

[سورة البينة]

والفسق ـ إذن ـ مترتب على اختيار المأمور .

وحين نتأمل نحن بالخواطر معنى : « أمر الله » نجد أن أمر الله يتمثل فى التكوينات الطبيعية الكونية ولا يوجد لأحد قدرة على مخالفة الله فى ذلك ، فهو القائل : (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) .

ويتمثل أيضاً أمر الله فى التشريعات ، وللبشر الذين نزلت لهم هذه التشريعات أن يختاروا بين الطاعة أو العصيان ، وسبحانه القائل عن الأمر بالتشريع : (وما أمروا إلا ليعبدوا الله) .

وحين يقول الحق : (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها) .

فسبحانه لا يهلك هذه القرية ظلماً ، وإنما يرسل إليهم المنهج ، فإن أطاعوا فأهلاً وسهلاً ، وإن عصوا فلابد لهم من العقاب بالدمار .

وهكذا نرى أن العلماء الذين ظنوا أن الفسق مترتب على الأمر من الله لم يلتفتوا إلى أن ورود الأمر فى القرآن جاء على لونين : أولا : أمر التكوين بالقهريات فلا يستطيع المأمور أن يتخلف عنه ، ويمثل الأمر القهرى قوله الحق :

﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾

(سورة يس)

فالأمر جاهز فى عالم الأزل ليبرز حين يشاء الحق . والأمر الثانى : هو الأمر التشريعى وهو صالح لأن يختار المكلف بين أن يطيع أو يعصى ، وفى هذا الإطار نفهم قوله الحق :

﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

فلا تقل : إن الله يأمر بالفسق ؛ فالحق قد أمر المؤمنين بالمنهج لأنه سبحانه لا يأمر بالفحشاء ، بل جاء الأمر لكل البشر أن يعبدوا الله مخلصين له الدين ، لكن كبار

أهل هذه القرية أخذوا البديل للطاعة وهو الفسق والمعصية ، فلما أمرهم ففسقوا ماذا يصنع بهم ؟ ، هو سبحانه يدمرهم تدميرا . فإن كان فى الكونيات فلا أحد من خلق الله مكلف فى الكونيات ، أما أمره الثانى فى اتباع المنهج فلنا أن نفهم أنه الاختيار .

وهكذا نعلم ونفهم معنى هذه الآية لتلتقى مع الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها : أى وإذا أردنا أن نهلك قرية أنزلنا منهجاً لها فأكابرها كانوا أسوة سيئة ففسقوا فيها بعدم إطاعة منهج الله فحق عليها القول فدمرناها تدميرا . وكذلك - أيضاً - نفهم قوله الحق : « وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون » لأن المكر إنما يريد به الماكر أن يحقق شيئاً من طريق ملتو لأنه ضعيف لا يمكن أن يواجه الحقائق ، وهذه الحقائق تستقبلها الفطرة السليمة ، وهو يريد تزييف المسألة على هذه الفطرة لذلك يلتوى . ولمثل هذا الماكر نقول : أنت تريد أن تحقق لنفسك خيراً عاجلاً وشهوة موقوتة ، ولكنك إن استحضرت العقوبة التى تنشأ من هذا الأمر بالنسبة لك ، وكذلك عقوبتك على أنك أضللت الآخرين لرأيت كيف يأتى الشر .

﴿ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾

(من الآية ١٢٣ سورة الأنعام)

أى لا يعلمون ، لأنهم لا يوازنون الأمور بدقة تؤدى إلى النفع الحقيقى ..

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾

وكأن الآية التى أرسلها الله مع رسوله وهى القرآن لتثبت لهم صدقه فى البلاغ عن

الله لم تقنعهم، ولم يكتفوا بها، بل طالبوا بآيات أخرى، فهم قد قالوا :

﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ ﴾ [سورة الإسراء]

هم لايريدون أن يؤمنوا بل إنهم يدخلون فى اللجاج، والتماس سبل الفرار من الإيمان؛ لذلك تجد أن كل الحجج التى وقفوا بها أمام دعوة الرسول هى أكاذيب؛ فقالوا إنه ساحر يفرق بين المرء وزوجه، وبين الولد وأبيه، ويدخل بما جاء به - ويزعم أنه من عند الله - الفتنة فى الأسرة الواحدة.

لكن لماذا لم يتساءلوا : مادام قد سحر غيرنا فلماذا لم يسحرنا؟ . وهل تأبوا هم على السحر؟ . وهل للمسحور رغبة أو خيار مع الساحر؟ . إنهم فى ذلك كاذبون .

ثم قالوا : إن الرسول ﷺ شاعر . ولو أن أحداً غيرهم قال مثل هذا الكلام لكان مقبولاً لأنه يجهل رسول الله ، ولأنه ليس من قوم هم أهل فصاحة وأهل بلاغة وأهل بيان، إنهم يعرفون الشعر، والنثر، والخطابة والكتابة . فلو كان هذا الأمر من غيرهم لكان القول مقبولاً، ولذلك نجد منهم من تصفو نفسه يقول : والله ماهو بقول كاهن ولا بقول شاعر . ويطلب الحق منهم ألا يقولوا رأيا جماهيريا؛ ففى الرأى الجماهيرى يختلط ويلتبس الحق بالباطل . بل كان يطلب منهم أن يكون الكلام محدداً بحيث تنسب كل كلمة إلى قائلها فيقول الحق :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ .. ﴿٤٦﴾ ﴾ [سورة سبأ]

أى لا تأتوا فى أثناء هياج الناس وتتهموا الرسول ﷺ بالجنون؛ لأن قولكم فى الهياج الجماهيرى غير محسوب على أحد لكن المطلوب أن تقوموا لله

مثنى أى اثنين اثنين ، وكل اثنين يقولان : هيا بنا نستعرض أمر هذا الرسول ونرى قضاياه : أهو كاهن ؟ . أهو ساحر ؟ . أهو شاعر ؟ فبين الاثنين لا يضيع الحق أبداً لأن كلاً منهما يناقش الآخر ، وحين يجلس اثنان للنقاش ، إذا انهزم منهما واحد أمام الآخر لا يُفضح أمام الغير ، لكن حين يتناقش ثلاثة أو أربعة فكل منهم يخاف أن ينهزم أمام غيره ، ونجد كل واحد يدافع عن نفسه . ولذلك حين يجلس اثنان معاً ليتناقشا ، ويبحثا أى أمر لا يخشى أحدهما الهزيمة ؛ لذلك يأتى الأمر من الله أن يقوموا لله مثنى أو فرادى ، ويتذكر كل واحد منهم أمر هذا الرسول : أهو مجنون ؟ .

إن أفعال المجنون وأعماله تكون متقطعة غير مستقيمة . ومحمد على خلق عظيم ، وهل يقال للمجنون : إنه على خلق عظيم ؟ ؛ لأن الإنسان منا لا يعرف كيف سيقابله المجنون ، أيضربه ، أيشتمه ، أيقطع له ملابسه ؟ . أمّا الخلق العظيم فمعناه الخلق المضبوط بالقيم ، وخلق رسول الله صلى الله عليه وسلم مضبوط بالقيم حتى صار ملكة وليس أمراً افتعاليًّا . وحين يقول الناس عن إنسان إن خلقه الكرم أى قد تأصلت فيه صفة الكرم تأصلاً بحيث أصبحت تصدر عنه أفعال البذل بيسر وسهولة ، والصفة حين ترسخ فى النفس تصير هى الخلق وتصدر عن النفس الأفعال بيسر وسهولة . وفى أعمال المعانى نسميها خلقاً ، وفى أعمال المادة نسميها آلية .

وكلنا يعرف أن الإنسان إن أراد أن يتعلم قيادة سيارة فهو يتعلم الأفعال التى تؤدى إلى سير السيارة حتى يكتسب المهارة ويؤديها بيسر وبدون صعوبة ، وكذلك الشأن فى الخلق حين تصدر عنه الأفعال بدُربة ومهارة ، ونجد - على سبيل المثال - من يتعلم الفقه ، فيسأله إنسان عن الحكم فى الأمر المعين ، فيستعرض الأمر من كل أوجهه فى وقت طويل ، لكن من يتدرب يصبح الفقه بالنسبة إليه ملكة ، فلا يتعب فى استنباط الحكم . كذلك الخلق .

ويوضح لهم الحق : أنتم تقولون عن الرسول : إنه مجنون ، فاجلسوا مثنى مثنى أو فرادى وادرسوا تصرفاته ستجدون أنها تصرفات منطقية مبنية على خلق كامل مكتمل ، وهو سلوك يختلف بالتأكيد عن سلوك المجنون ؛ لأن المجنون لا ضابط له فى حركاته ولا فى سكناته ولا فيما يأتى ولا فيما يدع . وكذلك لا يمكن أن يكون شاعراً ؛ لأنكم أنتم أهل شعر ، وكذلك ليس بكاهن ؛ فالكهنة قد يستبدلون بآيات

الله ثمنا قليلا، وهو الذى أعلن لكم رفض الملك والثروة والجاه. لكنهم قالوا:

﴿ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ .. (١٢٤) ﴾

[سورة الأنعام]

وقد حدث الوليد بن المغيرة نفسه بذلك، وكان من ناحية السن أسنّ من رسول الله، ومن ناحية المال كان غنيًا، ومن ناحية الأولاد عنده العزوة والولد، وقال: لو كانت الرسالة بكل هذه الأمور لكنت أنا أولى بهذا لأننى أسنّ ولأننى أكثر مالاً ولأننى أكثر ولداً. وهو قد قاسها بمقاييس البشر، وكأن الوليد لم يكن يعلم أن الرسالة ليست رئاسة، فإذا كنت أنت دون غيرك عندك المال وعندك الأولاد وعندك الزروع وغير ذلك لكنك لست على خلق محمد ﷺ، الذى فطره الله عليه وأعده واصطفاه ليكون رسولا، ولكن مع هذا قال بعضهم:

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾[سورة الزخرف]

ولنسمع رد القرآن:

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ..(٣٢) ﴾ [سورة الزخرف]

ويوضح لهم الحق: نحن قسمنا بينهم الأمور الحياتية، لكنكم تريدون تقسيم رحمة الله، وفرق بين الرحمة فى الرسالات وبين امتداد الحياة بالأقوات والمال؛ لأن هذه عطاءات ربوبية. لكن الرحمة هى عطاءات ألوهية، انكم تميزتهم فى دنياكم بالمال والبنين والبساتين لا لخصوصية فيكم ولكن لأن نظام الكون كله إنما يحتاج إلى مواهب متكاملة لا إلى مواهب متكررة، ولو امتلك كل الناس مثل ما عندك يا وليد من أرض ومال لما وجدت من يفلح لك الأرض، ولما كان عندك من يسرج لك الفرس. ولهذا جعل الحق مسألة الثروة دولاً، أى يقلب سبحانه هذه الأمور لتكون متداولة بين الناس؛ تكون لهذا فى زمن ولآخر فى وقت وزمن آخر ولا تدوم لأحد.

وحين جاء الناس إلى أبى جهل يحدثونه فى الرسالة قال: زاحمنا بنى عبد مناف فى

الشرف ؛ أطعموا فأطعمنا، كسوا فكسونا، ذبحوا فذبحنا. حتى صرنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي يوحى إليه والله لا نرضى به ولا نتبعه أبداً إلا أن يأتينا بوحى كما يأتيه، ومعنى كفرسي رهان، أي فحين تنطلق الخيل في السباق في وقت واحد كانوا يدقون عوداً في الأرض عند نهاية السباق ومن يجذبه من الأرض يقال له : حاز قصب السبق ، وعود القصبة هو غاية المشوار ، حتى لا يقولن أحد لقد سبقني بخطوة أو غير ذلك.

وهنا يقول الحق : ﴿ وإذا جاءتهم آية ﴾.

وانظر إلى كلمة «جاءتهم آية»، فمرة يقول: ﴿قد جئناك بآية من ربك﴾، ومرة يقول: «جاءتهم آية»، فكأن الآية بلغت من وضوحها ومن استقلالها ومن ذاتيتها وخصوصيتها أنها تجيء.

﴿ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ .. ﴿١٢٤﴾ ﴾ [سورة الأنعام]

ويقول الله لهم رداً عليهم : لا تقترحوا ذلك على الله ؛ لأن «الله أعلم حيث يجعل رسالته» ؛ لأن الرسالة إنما تجيء لتنشر خيراً في الجميع، ولكنها تعف نفسها عن آثار الانتفاع من ذلك الخير. والغير يريد أن يأتي له الخير ثم يترك بعضاً من الخير للناس. والرسول قد جاء لينشر خيره للآخرين، وهو نفسه لا ينال من هذا الخير إلا البلاغ به. ويأمر سيدنا رسول الله ﷺ قبل أن يموت ألا يأخذ أهله الزكاة ، أمّا ما تركه فقد صار صدقة للناس، أي أنه لم ينتفع به في الدنيا؛ لذلك هو مأمون على الرسالة ، ولم يرُد أن يأخذ الدنيا ليرثها أهله من بعده. وقد أراده الله كذلك ليكون خيره لكل الناس. فالرسالة تكليف ، والنبوة ليس جزاؤها هنا ، بل من عظمة الجزاء أنه في الآخرة، ولذلك حينما جاء رسول الله ﷺ في بيعة العقبة وقالوا: اشترط لنفسك. قال: تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وتعملون كذا وتعملون كذا.

قالوا له : فما لنا ؟ أنت اشترطت لنفسك ، فما لنا إن نحن وفينا؟. ماذا قال الرسول ﷺ ؟ . قال : لكم الجنة . هذا هو الثمن الذى عنده ،

فمن يريد الجنة يأتى إلى الإيمان، ومن يريد ما هو دون الجنة فليس مكانه مع أهل الإيمان. مع أنه قال لهم فيما بعد ستركبون السفن وتفرشون الزرابى والوسائد وتجلسون عليها، وبشرهم بالكثير، لكنه لم يقل لهم ذلك من البداية لأن من هؤلاء من لا يدرك خيراً فى الدنيا مع الإسلام؛ بل يموت والإسلام ضعيف واتباعه فى قلة، لذلك أعطاهم الجزاء المضمون لهم جميعاً حين قالوا له: ماذا إن نحن وَفَّينا؟. قال: لكم الجنة. وكأنه ﷺ يعلمهم أن الدنيا أهون من أن تكون جزاءً على العمل الصالح، فجزاء العمل الصالح خالد لا يفوتك ولا تفوته.

﴿ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ .. (١٢٤) ﴾ [سورة الأنعام]

وحين نتأمل قولهم: (لن نؤمن) نجد أن فى هذا القول إصراراً على عدم الإيمان، أى لن نؤمن حتى فى المستقبل إنهم تحكموا فى المستقبل. ثم يفضحهم الله فيموت بعضهم على الكفر، ومن بقى منهم يأتون مؤمنين بعد الفتح. ومن العجيب أن العبارة التى ينطقون بها هى عبارة مهزوزة لاتستقيم مع منطق الكفر منهم، قالوا: لن نؤمن حتى نؤتى مثل ماأوتى رسل الله، كأنهم قد عرفوا أن هناك رسلا من الله، والأصل فى الآية أن يؤمنوا برسل الله ورسول الله ﷺ خاتم الرسل، وهذا القول يدل على مجرد المعارضة المقترنة بالغباء، فما دمتم تعرفون أن لله رسلاً يصطفيهم، فكيف تحاولون أنتم تحديد إرادة الله فى الاختيار؟.

إن رسل الله كانت لهم آيات كونية، حسية مرئية، وهى وإن كانت فيها قوة المشهد الملزم، إلا إنه لا ديمومة لها، فمن رأى سيدنا موسى وهو يضرب البحر فينفلق لن يكذب هذه الآية الكونية، إلا أنها أصبحت خبراً والخبر مناسب لمحدودية رسالة موسى، وكذلك رسالة عيسى عليه السلام حيث أبرأ الأكمة والأبرص بإذن الله. وهذه رسالات لزمن محدود وفى قوم محدودين، لكن الرسول ﷺ جاء ومعه المنهج المعجزة الباقى إلى قيام الساعة، فإن كانت المعجزة حسيّة فلن يراها إلا قوم مخصوصون لأن الأمر الحسى لايتكرر، بل ينتهى، وسيدنا محمد رسول إلى أن تقوم الساعة. فلا بد له من آية باقية إلى قيام الساعة؛ لذلك كانت الآية فى المعنويات والعقليات التى لاتختلف فيها الأمم ولا تختلف فيها الأزمان،

لكنهم أرادو معجزة حسية، وأخرى عقلية، حتى إذا جاءت واحدة فقط أنكروا الثانية، فحسم الحق الأمر وقال: «الله أعلم حيث يجعل رسالته».

ولو نظروا إلى كلمة «الله أعلم حيث يجعل رسالته»، فكلمة «أعلم» تدل على أنه قد يمكّن الله بعضاً من خلقه ليعلموا لماذا اختار الله محمداً ﷺ؛ لأن الذين واجههم ﷺ بأمر الدعوة، هل انتظروا منه أن تكون له آية أو معجزة، أو آمنوا به بمجرد الإخبار؟. لقد آمنوا بمجرد الإخبار؛ لأن تجربتهم معه أكدت أنه صادق وأمين على خبر الأرض، ولابد أن يكون مأمونا على خبر السماء؛ لأنه لم يكذب عليهم فى أمر الأرض، فكيف يكذب فى أمر السماء؟

إننا نجد أن سيدنا أبا بكر، بمجرد أن علم بأمر الرسالة قال: صدقت، وسيدتنا خديجة صدقته من فور أن قال، وأخذت صدق بلاغه من مقدمات حياته، وقالت أول استنباط فقهى فى الأسلام. وكان ذلك لسيدتنا أم المؤمنين خديجة قبل أن يعرف الفقه بمعناه الإصطلاحى الحديث، مما يدل على أن الاستنباطات للأدلة هى استنباطات للعقل الفطرى السليم البعيد عن الأهواء. إنه يقدر أن يستقرىء الأمر ولابد أن يهتدى، فحين أعلن لها أنه خائف أن يكون الذى أصابه مرض أو مسٌّ من الجن رفضت ذلك لأنه يصل الرحم، ويحمل الكلّ، ويعين على نوائب الدهر، وقالت له: والله لايخزيك الله أبداً.

إذن فقد جاءت بالمقدمات التى ترشح أن ربنا لا يمكن أن يخذله، وكل المقدمات مفاخر، كلها خلق عظيم، وكلها التقاءات إنسانية قبل أن يأتى منهج السماء، التقاءات إنسانية بالفطرة دون تقدير أو تدبير، وكان هذا أول استنباط فقهى فى الإسلام. ولذلك نعرف السر لماذا جعل الله لرسوله أم المؤمنين خديجة أول زوجة له؟ لأنه ستمر به فترة لايحتاج فيها إلى زوجة فقط، بل إلى ناضجة، ذلك النضج الكامل الذى تستقبل به مسائل النبوة، ولذلك حين يخرج إلى الغار تأتى له حكمة خديجة فى الاستنباط قبل أن يوجد فقه الإسلام؟

«الله أعلم حيث يجعل رسالته»؟، وهم قد أصروا على ألا يعلموا على الرغم من أنهم وجدوا منه خصالاً وأشياءً حكموا بوجودها فيه وأنها صفات رسول.

﴿ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ١٢٤ سورة الأنعام)

هنا نجد فجوة انتقالية في الأداء ، فمن قبل يتحدث سبحانه عمن يظنون أنهم كبار ، فيأتي ليقول : إن الصَّغار سيصيبهم ، وليس معنى الصغار الذل والهوان لدى الناس ، لا ، بل صغار وذل وهوان عند نفس كل منهم ذاتيًّا ، فكل منهم سيشعر بالذل أمام نفسه ويستصغر نفسه . كأن الصغار سيصيب الإنسان في نفسه ، ويكون هذا الصغار من عند الله ، وما دام الصغار منسوباً إلى عندية الله فهو لا يزول أبداً ؛ لأنه لا توجد قوة ثانية تقول لله إن قدرك لن يتحقق . فالصغار والذل والهوان سينزل بهم وهم مع كونهم أكابر المجرمين فلن يستطيعوا دفعه عن أنفسهم ، وسيصيبهم مع ذلك عذاب شديد .

لماذا العذاب الشديد ؟

لقد قلنا من قبل : إن العذاب يوصف مرة بأنه أليم ، ويوصف مرة أخرى بأنه مهين ، ويوصف هنا بأنه شديد . والعذاب المهين الذي تكون فيه ذلة النفس . والعذاب الأليم الذي يكون في البنية ؛ لأن الإنسان له بنية وله معنويات قيمية ، فمن ناحية البنية يصيبه العذاب ، ومن ناحية المعاني النفسية تصيبه الإهانة ، فهناك من يتعذب لكنك لا تملك أن تهينه ويتحمل المشقة برجولة ، ومهما تلقى من الإهانة فلا تزال نفسه كريمة عليه ، مصداقاً لقول الشاعر :

وتجلدي للشامتين أريهمو   أني لريب الدهر لا أتضعضعُ

لذلك ينزل قدر الله بالعذاب على نوعين : عذاب بنية وعذاب قيم ، وهذا هو الصغار ، والعذاب الشديد ، وهو الذي لا يقوى الإنسان على تحمله ، ولم يُنزل الحق العذاب بهؤلاء جزافاً ، لكنه بسبب ما كانوا يمكرون ، فسبحانه هو القائل :

﴿ وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

(من الآية ١١٨ سورة النحل)

والحق سبحانه وتعالى حينما عرض هذه القضية عرضها ليبين لنا أنه لم يرغم بقدره خلقاً من خلقه على مسائل الاختيار في التكليف بل أوجد ذلك في إطار :

﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ .. (٢٩)﴾ [سورة الكهف]

ولكن الإرغام من الحق جاء للأمور القهرية القدرية الكونية الخارجة عن نطاق التكليف، أما أمر التكليف فالله سبحانه وتعالى قال فيمن يرفضون الطاعة : «يصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد» وسبحانه قد أوضح لنا : نحن لم نجعل ذلك قهراً منا لهم دون عمل عملوه باختيارهم بل إن العذاب والصغار كانا جزاءً لمكرهم .

ثم يأتي الحق سبحانه وتعالى لنا بقضية يقع فيها الجدل التبريرى لبعض الناس الذين أسرفوا على أنفسهم، ويريدون أن يجعلوا إسرافهم على أنفسهم فى الذنوب خاضعا لأن الله أراد منهم ذلك ؛ فيقول سبحانه :

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ
لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا
حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ
يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (١٢٥)﴾

نجد من يقول إن ربنا حين يريد لإنسان أن يشرح صدره للإسلام فذلك من إرادة الله وماذنب المكلف إذن؟ .

وللرد على هذا نقول : لقد عرفنا من قبل أن الهداية لها معنيان : المعنى الأول : الدلالة وهى أمر وارد وواجب حتى للكافر . فإن هُدى الله للكافر أن يدلّه إلى طريق الخير، ولكن هناك هداية من نوع آخر وهى للذى آمن، ويصبح أهلاً لمعونة الله بأن يخفف عنه أعباء التكاليف وييسرها له ويجعله يعشق كل الأوامر ويعشق البغض والتجافى عن كل النواهى .